أشتاق الخروج من النفق

منذ أن أتيت إلى هذه المدينة وأنا أفتقد الأفق..

إنني خليجية.. عيناي تعشقان الرحابة، تعشقان الأفق.. تعشقان المرور بالبحر. النهر جميل وبه سحره الخاص، ولكنه ليس كالبحر..

السيارات تقلني عبر الشوارع، أطل من نوافذها فلا أرى إلا مباني.. عريقة نعم، كثير منها جميل نعم، ويزدان بالتماثيل.. التماثيل يخيل إليّ في بعض الأماكن أنها تكاد تنافس السكان عدداً، تشعر من كثرتها أحياناً أنها بلا مبرر.. أوضاعها تشي بكثيرٍ من الفن والإحساس الإنساني المرهف لناحتيها، إنها تجلس على المداخل، تتسلق الأسوار، تحنوا على صغارها، تبدو ساهمة في ملابسها الحجرية المرفرفة في هواء عالمها، أو بلا ملابس.. إنها سوداء من حديد، حجرية، بيضاء .. مطلية.. مبهرة وإن كان بها قشعريرة الموت..

ومع هذا فالمدينة تفتقد شيئاً هاماً؛ أين الأفق؟ حتى الحدائق عندما أمر بأسوارها بالسيارة لا تُظهر لي الأفق بالمدى الذي اعتدته في مدن الخليج.. الأشجار الفارهة الطول تعمل عمل المباني في حجبه وإن حجبته بأناقة ورقة وجمال عندما تخلل الشمس أفرعها وأوراقها فتخلق طبقات من الخَضار.. أعتقد أنني يجب أن أسترق وقتاً لأدخل حديقة ذات تلالٍ أو أذهب إلى الضواحي لأرى الأفق.. الفضاء..

الفضاء الذي اكتشفت أني أحتاجه أول مرة في أحد أحياء القاهرة في التسعينيات حيث مشيت في طريق بين سلاسل من العمارات ولم يكن من وسيلة لرؤية السماء إذا أحببت رؤيتها إلا برفع الرأس إلى الأعلي، شعرت بشيء من الإنقباض عندما مشيت مدةً في الطريق الضيقة بين العمارات بشرفاتها المتهالكة وشعرت أنها تكاد تطبق عليّ..

وهنا، في هذه المدينة التي أيضاً أحبها لازلت أشعر والسيارة تجوب بي الشوارع بأنني في نفق طويل أنتظر الخروج منه.. لأرى جمال المدينة..

ماذا فعلت بنا أيها الخليج العزيز؟ هل كان يجب أن تغرس فينا حب الأفق والبحر والصحراء؟

دلال خليفة

نشر بالملحق الثقافي لجريدة الشرق بتاريخ ٢٠١٤/٦/١٥م